

الفصل الرابع

[غرفة العزل]

بعد عدة أيام، وبينما أنا أسير باتجاه المنجم مع البقية، منشغلة بتفكيري كالعادة، تردد صوت خلفي ينادي "نجلاء.. نجلاء.."

لم أنتبه للأمر كثيراً وأنا أنظر للسوار في يدي، محاولة التفكير في طريقة للتخلص منه، عندما سمعت أدهم يقول بصوت عالٍ "حمراء.."

التفتُ على الفور لأجده مع أمجد خلفي، فقال أدهم مبتسماً "أخبرتكَ أنها لن تستجيب إلا لهذا الاسم.."

قطبت بشيء من الحنق، لتعليقه ولأنه أصاب فيه، فيما قال أمجد وهو يقترب مني "لقد ناديتك عدة مرات.. لكنك لم تستجيب لي.."

غمغمت بأي عذر وإن بدا غير مفهوم.. فقال أمجد وهو يسير جوارِي "أتذكرين حديثنا عن محاولات الهرب السابقة؟"

هزرت رأسي إيجاباً، كنت قد سألتُه إن كان قد سمع من السجناء القدامى عن حادثة نجح صاحبها في الهرب من هذا السجن الكبير.. فقال لي "لقد أخبرني أحد الرجال ممن يعملون قربي في المنجم عن حادثة حصلت منذ سنة تقريباً.. يبدو أن الرجل الذي نجح بالهرب كان ذا ذكاء أعلى من الآخرين.. لقد انسلَّ من بين الحراسة المشددة دون أن ينتبه له أحد الحراس قبل مرور ليلة كاملة.. فقط عندما أدركوا أن موقعه في المنجم شاغر قاموا بالتبليغ عنه.. ويبدو أنهم استغرقوا وقتاً في تحديد موقعه، ولم يتمكنوا من الإمساك به رغم ذلك.. ما سمعه الرجل عن ذلك الهارب أنه نجح في اختراق الحراسة حول الإدارة بعد يومين من الاختباء.. وتسلسل لإحدى السفن الفضائية التي يتم إعدادها للرحيل.. لكن أمره كشف قبل وصوله للأرض، ولا يعلم أحد ما فعلوه به بعد ذلك.. إنما علمَ الرجل الذي سألتُه بخبره من أحد الحراس بعد أن ألحَّ بالسؤال عنه"

تساءلت بتعجب "لكن كيف لم يستطيعوا القبض عليه باستخدام السوار؟"

أجاب أمجد "لا أحد يعلم، لكن يبدو أنه اكتشف طريقة لتعطيله.."

فغمغمت باهتمام "إن هذا السوار ليس منيعاً كما يدَّعون.. جيد جداً.."

تساءل أدهم "ما الذي تطمحين إليه من قصة كهذه؟ هل تنوين الهرب؟"

قلت بابتسامة "أكون حمقاء لو فكرت بذلك قبل أن أجد حلاً لهذا السوار.. أليس كذلك؟"

قال أدهم "هذا ليس جواباً بالنفي لو لاحظت ذلك.."
 ابتسمت دون أن أجيب، فقال أمجد "لو دار هذا بخلك فاصرفي النظر عنه تماماً.. إنهم لا يتهاونون
 بمن يحاول الهرب أبداً..
 قلت وابتسامتي تتسع "لا تقلق..
 فغمغم أدهم "وهذا ليس نفيّاً أيضاً..
 لم أعلق أو يفعل أمجد ونحن نصل للمنجم مع البقية..

مضى علينا أسبوع وأنا أحاول إيجاد طريقة للتخلص من هذا السوار.. لن أتقدم بحال إن لم أعثر
 على هذه الطريقة، خاصة بعد أن علمت أن هناك من نجح في هذا قبلي.. انشغلت بالتفكير وأنا أتناول
 إفطاري، عندما سمعت بسمه تهتف وهي تقف فجأة "حمراء.. لنسرع بالذهاب.. لقد ابتعد الآخرون
 كثيراً عنا"
 حدجتها بنظرة حادة وأنا أتخلى عن طعامي وأقف متسائلة "حمراء؟"
 اكتسى وجهها بشيء من الحمرة وهي تغمغم "أسفة.. لقد خرج الاسم من لساني عفويّاً.. يبدو أن
 إصرار أدهم على مناداتك به قد أثر بي أيضاً..
 فصمتُ دون تعليق وأنا أسير معها تجاه المنجم.. يبدو أنني قد بدأت أتقبله أنا الأخرى.. وهو أنسب لي
 من اسم نجلاء قطعاً.. والدليل على ذلك أنني أستجيب بسرعة لمن يناديني به، بينما أستغرق بضع
 ثوانٍ لأستوعب الأمر عندما ينادوني باسم نجلاء.. حتى أمجد لم يعد يناديني به بعد أن يؤس من
 استجابتي له بشكل طبيعي..
 رأينا في تلك اللحظة أمجد يقف مع ثلاث رجال في منتصف الطريق إلى المنجم، اثنان منهما ضخما
 الجسد والوشوم تكسو جسدهما، والثالث طويل وإن كان بغير ضخامة.. همست بسمه معلقة "لا
 يبدو أنهم ينوون به خيراً..
 كانت وجوه الثلاثة مكفهرة غاضبة، بينما أمجد هادي كعادته يحدثهما بكل برود.. ومع غياب الحراس،
 بعد مضي عدة أيام وتعودنا على الطريق، فإن الموقف لم يكن مطمئناً.. وقفت مانعة بسمه من التقدم
 وأنا أنظر لهم مقطبة، هؤلاء الثلاثة معروفون بشرهم والكل يتجنبهم ويتفادى الدخول معهم حتى في
 أحاديث عادية.. فما الذي ورط أمجد معهم؟..
 بعد قليل، رأيت الضخم يدفع بقبضته أمجد في كتفه حتى كاد يسقطه.. لا يبدو أن أمجد ند لهم بأي

حال، فقلت لبسمة “أذهبي ونادي أقرب حارس منا..”
عادت أدراجها على الفور تبحث عن حارس، فيما قلت أنا بصوت عالٍ “أحد الحراس قادم إلى هنا..”
التفتوا ينظرون إليّ، فأضفت “لقد ناديناها بالفعل..”
ظلوا ينظرون لي بتكذيب، وقبل أن ينبس أحدهم بحرف سمعتُ صوت أدهم من خلفي يقول “ما الذي تفعلونه هنا؟”

نظروا لأدهم الذي اقترب وخلفه بسمة، ثم تراجع الرجال الثلاثة مبتعدين وأحدهم يتمتم بكلمات لأمجد لم تصل لسمعنا.. ثم ابتعدوا متجهين إلى المنجم بصمت.. يبدو أنهم نوعاً ما يخشون أدهم بعد حادثة جرت له في المنجم مع أحد السجناء ولم يسلم منها السجين بعد أن أذاقه لكمة كادت تكسر فكه.. ولولا غفلة الحراس عن الحادثة لقضى أدهم ليلته تلك في العزل.. اقتربنا من أمجد وأدهم يتساءل “ما الذي أراده أولئك الأوغاد؟”

قال أمجد “لا شيء.. حصل بيننا جدال في المنجم منذ أيام بسبب العمل.. وهم حانقون لأن الأمر وصل للحراس وقد يلقون عقاباً على ذلك”
فعلق أدهم “كان عليك تجنبهم بأي طريقة.. مثل أولئك الرجال غدارون بطبعهم، ولا تعلم متى سيقرون الانتقام منك”

لم ينبس أمجد بكلمة وهو يكمل طريقه تجاه المنجم.. فسرنا بدورنا معه وبسمة التي جاءت خلف أدهم تغمغم “الحياة هنا ليس آمنة أبداً.. الكثير ممن حولنا هم مجرمون سابقون، لذلك لا نستطيع أن نأمن على أنفسنا معهم أبداً”

قال أدهم “لا تنسي أنك أيضاً مجرمة سابقة.. وإلا ما كنت هنا..”
علقتُ قائلة “هذا ما يقولونه هم.. لكن لا شيء يؤكد ذلك..”
نظر لي أمجد بتعجب معلقاً “أتظنين أنهم كاذبون؟”

قلت مقطبة “هذا ما أكاد أجزم به.. لكني لا أملك الدليل على ذلك.. يغيظني حقاً أننا فاقدون لذاكرتنا تماماً.. لقد قالوا إنها ستعود لنا تدريجياً، لكن هذا لم يحدث عدا عن ومضات متفرقة لا نفهم منها شيئاً”

قال أمجد “إذن لا شيء يدعم فكرتك هذه.. فلا تجعلني الأمر يتضخم في عقلك ويشغل تفكيرك..”
غمغمت وأنا مستمرة في سيرتي “على الأقل، هذا أفضل من التفكير في هذه الحياة البائسة التي نحياها..”

لم يعلق أحد على قولتي ونحن نصل للمنجم ونتفرق كالعادة..

علا الصراخ في الغرفة جاذباً انتباه الموظفين في الخارج..
صراخ عصبي وأثاث يتحطم..
زجاج النافذة تهشم بطاولة صغيرة ارتطمت به..
“أنت خدعتني.. الويل لك..”
رجلان مفتولي العضلات يهرعان للغرفة..
“أيها الوغد.. ستندم على هذا..”
عراك محدود.. وغضب بلا حدود..
“لماذا تفعل هذا بي؟”
لكن السؤال لم يجد جواباً والضربة القوية تسلبه الوعي بشكل تام..

في اليوم التالي، وفيما نحن نتناول إفطارنا، رأيت أدهم يتذمر، للمرة المليون، من قلة طعامه.. وللمرة المليون أيضاً تجاهله الحراس تماماً.. نظرت للطعام الذي بالكاد يسدّ الجوع، فلم أستطع لومه على تدمره.. لابد أنه، بحجمه هذا، بحاجة لضعف الطعام الذي نتناوله.. ولابد أنه، بسبب الحجم أيضاً، يقوم بضعف الأعمال الشاقة التي نقوم بها.. للمرة الأولى أتعاطف معه، ورغم كل ما يغيظني فيه، لكنني نهضت من موقعي دون تفكير، واقتربت منه حيث جلس متطرفاً عن البقية.. فدفعت بطعامي الذي لم أمسسه تجاهه وأنا أقول "خذ هذا.. ولو أنني أعلم أنه لن يسدّ جوعك أبداً"
نظر لي بدهشة، فأسرعت أضيف "ولا تحلم أن أكرر هذا الفعل مرة أخرى.."
علق قائلاً "لا يجب أن تتخلي عن فطورك وأمامك عمل شاق في المنجم.. ماذا لو أصابك دوار لقلة التغذية؟"

ابتسمت مجيبة "لا تقلق.. لن يحدث ذلك.."

فقال بامتنان "شكراً لك.."

وانقض على الفطور لينهيه في ثوانٍ.. أما أنا، فقد اتجهت من فوري للمنجم مع من أنهى فطوره..
وهناك، انشغلت بعملتي المعتاد بصمت.. حدثت عدة تغييرات في المنجم وتم تغيير موقع عدد كبير من السجناء، لكن لحسن حظي لم يحدث هذا لي، فأنا مرتاحة للهدوء، إن كنت أستطيع تسميته بذلك،

الذي يعمّ البقعة التي أعمل فيها.. هناك القليل من العاملين فيها غيري، وجميعهم ملتزمون بالصمت أثناء العمل ولا يهونون الثثرة..

لكن بدا أن هذا سيتبخر سريعاً.. إذ تناهى إلى مسامعي حديث ثلاث رجال وأنا أعمل.. ورغم أنني حاولت تجاهل وجودهم، وأنا أحمل بعض الأحجار سوداء اللون إلى العربة القريبة مني، إلا أن كل حرف ينطقون به كان يصل لسمعي واضحاً وهم جاهلون لوجودي خلف جدار يحجبني عن أنظارهم.. سمعت أحدهم يقول "ذلك الوغد الذي يتذاكى عليّ.. من يظن نفسه؟"

وأضاف وهو يلکم راحة يده بقبضة يده الأخرى "لقد تدخل في عملي.. ويظن نفسه أكثر ذكاء مني.. لقد تسبب في توبيخي من قبل الحارس وحرمانني من غدائي.. وتم تهديدي بإدخالني في غرفة العزل أسبوعاً بسبب ما أتلفته.."

علق الثاني "إنه ضعيف الجسد.. لكمة مني ستسقطه بكل سهولة.."

ابتسمت في سري.. إنه التعبير ذاته الذي استخدمته لوصف أمجد.. وسمعت الثالث يقول "لبد أن نعلمه احترام القدامى في المكان.. نحن هنا قبله، وهذا يمنحنا ميزة سيندم إن تغاضاها.."

تأففت قليلاً وأنا أفكر بتفاهة أولئك الرجال بعقولهم القاسية.. يبدو أن من يتحدثون عنه سيواجه أوقاتاً عصيبة معهم.. لكن هذا ليس من شأني ولا أعلم عن يتحدثون..

تساءل الأول "وماذا عن الرجل الذي معه؟ ذلك الضخم الذي يبدو غير هين بالمرّة.. يبدو أنه ممن كانوا يمارسون إحدى الرياضات الجسدية.. لكمته ليست هينة أبداً.."

قال الثالث بثقة "ذلك الذي يدعونه أدهم؟ لا أعتقد أنه سيتدخل في كل مرة.. ثم إنه يعمل في موقع بعيد عنا، ولن يستطيع القدوم لنجدة رفيقه في الوقت المناسب.."

اتسعت عيناى وأنا أستوعب عن يتحدثون، ثم شحذت أذناى وأنا أنتبه لأحاديثهم أكثر، وألقيت عليهم نظرة من خلف الجدار لأجدهم هم الثلاثة الذين رأيناهم مع أمجد من قبل.. وسمعت الثاني يضيف "ماذا تنوي أن تفعل؟ لا أنصحك بالتعرض له في موقع العمل فالحراس متشددون من هذه الناحية..

أما إن حدث شيء في المسكن فلن يتدخلوا أو يشغلوا أنفسهم به.."

قطبت حانقة.. عليّ إبلاغ أمجد وأدهم بما سمعته.. لا يمكن أن أصمت وأدعهم ينتقمون من شخص لا ذنب له في خطأ ارتكبوه هم..

سمعت أحد الرجال يقول "اسمعوا.. لديّ خطة.. يمكننا أن نورطه في مشاكل مع الحراس أقل ما سيحصل عليه بعدها هو العقاب والعزل.. ما رأيكم؟"

كان ما سمعته أكثر مما أطيق، فخرجت من موقعي متقدمة تجاههم والغيط يشند بي.. لست أدري بماذا أهدف مما أفعله، لكنني لم أسأل نفسي وأنا متأكدة من وجود الحراس قريبين مما سيردع

الرجال من التعرض لي.. اقتربت منهم مسافة معقولة وقلت بصوت عالٍ "أنتم.. ما هذا الذي تتفوهون به؟"

نظروا إليّ وقد علت المفاجأة وجوههم.. ثم قال صاحب الوشوم "ابتعدي يا هذه ولا تتدخلني.. وإن تفوهت بكلمة فعقابي سيكون قاسياً على فتاة مثلك"

درت بنظري حولنا لأتأكد من وجود بعض الحراس قريباً منا، ثم قلت للرجل ذو الوشوم "اسمع.. أنا لن أصمت لما قد تفعله بأمجد.. إياك أن تقترب منه أو تؤذيه.. وإلا أبلغت الحراس بكل شيء"

أطلق الرجال ضحكات هازئة قبل أن يقول الثاني "أعتقد أن ذلك الرجل سيكون فخوراً بوقوف فتاة مثلك في صفه.. فهو غير قادر حتى على الدفاع عن نفسه"

قلت بحدة "لا شأن لك بهذا.. فقط احذر من التعرض لأي من رفاقي.."

اقترب ذو الوشوم مني وهو يقول بسخرية "أذهبى والعبي بعيداً يا فتاة.. ولا تتدخلني في حديث الرجال"

مرة أخرى يعاملونني بحقارة وكأنني ضعيفة.. أكره أن تلصق تلك الصفة بي.. أكرهها بجنون.. ورغم أن ما نويت فعله لم يكن في صالحى البتة، إلا أنني لم أرتدع.. فرميت قدمي بأقوى ما أملك وركلته في ساقه ركلة مؤلمة.. فصاح الرجل متألماً، وقبل أن أبتعد عنه أمسك بي ولكمني على وجهي بقوة ألقنني للوراء حتى ارتطمت بجدار المنجم بعنف.. شعرت بدوار في رأسي وألم شديد في وجهي وكأن فكي قد تفتت قطعاً صغيرة.. وحرقة تنتشر في ظهري بسبب الارتطام حتى لم أقو على الوقوف..

وقبل أن أتحرك كان الرجل قد وصل إليّ ورفعني ممسكاً بمجمع ملابسى، ثم قال وهو يمسك وجهي بأصابعه مثيراً ألماً جمّة فيه "هل لديك اعتراض آخر يا فتاة؟"

فوجيء بضربة قوية من ركبتى تصيب كرشه المتمدد وأنا أصبح "لا تعاملني كفتاة ضعيفة أبداً.."

أطلقني غصباً عنه وهو يمسك بطنه متألماً، لكن سارع الثاني ضخم الجثة بإمساك ذراعى ولويها خلف ظهري.. في نفس اللحظة التي اقترب فيها حارسان منا وأحدهما يصيح "أطلقها.. أطلقها حالاً.."

ظل الرجل ينظر للحارس وبدأ أنه لا ينوي تنفيذ الأمر، بينما صاح الرجل ذو الوشوم وهو يجذب شعري بشدة "كيف تجرؤين؟.."

كتمت صيحة ألم بصعوبة، فيما ارتفعت أسلحة الحارسين في وجوهنا وأحدهما يصيح "توقف حالاً.."

كان جمع من السجناء قد تجمع خلف الحارسين بدهشة مما يجري، فيما اقترب مزيد من الحراس منا، فأطلقني صاحب الوشوم وهو يتراجع مغمغماً بغیظ "سترين أيتها الحقيرة.."

لكن غضبي لم يهدأ، وفور أن أطلق الضخم الآخر ذراعى حتى التفت إليه مجدداً وركلت ساقه بأقوى

ما أستطيع.. وقبل أن ينقض عليّ الرجلان كان أحد الحراس قد كبّل ذراعيّ وهو يجرنني بعيداً وأنا أصرخ بغضب "أنت هو الوغد الحقيّر.. لا تفكر بالاقتراب منا أو أذية أحد منا أبداً.."
 حصّلت معمعة صغيرة بعد هذا.. إذ حاول الرجل الضخم النيل مني ونال ضربة بمؤخرة سلاح أحد الحراس.. وانقض الرجلان الآخران على الحراس أيضاً في قتال صغير نلتُ منه عدة ضربات كادت تكسر ضلوعي وتسببت في نزف بعض الدم من أنفي وفمي..

وأخيراً، تكالب الحراس القريبون على أولئك الرجال، وحصل كل منهم على ضربة قوية بالسلاح أسقطته فاقد الوعي، بينما لم يحدث هذا لي وقد كان الحارس ممسكاً بي وأنا أتأمل ما جرى بشيء من الدهشة.. إذ نادراً ما يتحرك الحراس ويلتحموا مع أحد السجناء في قتال يدوي، بل غالباً ما يتم الأمر باتصال قصير إلى الإدارة تتبعها شحنة صغيرة تصيب السجناء ليفقدوا وعيهم.. فلماذا لم يحدث هذا الآن؟ أنا لم أرَ أحد الحراس يجري أي اتصال بالإدارة حتى الآن، وهو كما قلت شيء نادر الحدوث، إذ أنهم ملتزمون بتقرير كل شيء مهما كان صغيراً للإدارة فور حدوثه.. فهل لموقعنا هنا علاقة بذلك؟.. بدأت الفكرة تختمر في عقلي والحراس يقومون بتقييدي مع أولئك الرجال، وقد قال أحد الحراس الذي وقف ملوحاً بسلاحه في وجهي "سيكون حظك حسناً لو أنك حصلت على عزل إجباري فقط ولم يتعدّ الأمر ذلك"

سألته مقطبة "وما الذي يتعدى ذلك؟"

لم يجبني وهو يقودني عبر المنجم نحو الخارج وبقية الحراس يأمرّون السجناء بالتفرق والعودة لأعمالهم.. لحت وجهه بسمة المدعور بينهم وهي تغطي فمها بيدها بصدمة.. وجوارها وقف أمجد ينظر لوجهي بدهشة.. فأشحت بوجهي وأنا أمسح الدماء بكمّي.. كان شكلي تعيساً، ولم يكن هذا مما يسعدني..

فور خروجنا من المنجم شعرت بالنور القوي بعد الظلمة يسبب دواراً في رأسي، ربما هذا راجع للضربة التي تلقيتها على وجهي، أو لفظوري الذي لم أتناوله.. ولحسن حظي أجلسني الحارس في موقع منعزل عن العمل وابتعد مطمئناً لوجود عدد من الحراس متفرقين في الساحة المحيطة بانتظار قدوم مركبة من الإدارة لنقلنا... فيما أسندت رأسي إلى ذراعيّ المستندتين إلى ركبتي وحاولت تمالك نفسي.. ما هذه الحماقة التي ارتكبتها؟ أي غباء سيطر عليّ في تلك اللحظة؟.. يبدو أنني أدهش نفسي في كل مرة أتصرف فيها بدون تفكير..

سمعت همساً قربي، فرفعت رأسي لأجد أمجد قد اقترب وركع قربي بوجه قلق وتساءل بصوت خافت "ما الذي جرى يا حمراء؟ هل تعرض لك أولئك الرجال؟"

أشحت بوجهي بعيداً وأنا لا أرغب في أن يرى ما أصابني من كدمات وقلت "سيعاقبك الحراس.."

يحسن بك أن تبتعد..”

قال مقطباً “أخبريني بما جرى.. لماذا تشاجرت مع أولئك الرجال؟ الكل يهابهم هنا.. فما الذي دفعك....”

قلت بعصبية “لأنهم كانوا ينوون أذيتك.. كانوا يخططون لإلحاق الأذى بك ولم أستطع الصمت على ما أسمع.. أردت تحذيرهم من التعرض لأي أحد منا، لكنهم لم يتوانوا عن ضربني رغم وجود الحراس قريبين منا”

ظل أمجد يستمع لي بدهشة مصدومة، ثم قال بحدة “لماذا فعلت ذلك؟ لم لم تبلغيني بمخططهم وتتجنبني الدخول في مشاكل معهم؟ أنظري لما فعلته بوجهك.. والآن سيعاقبونك على إحداثك للشغب..” قلت بضيق “هذا لا يهم الآن.. ما جرى قد جرى.. ولست نادمة على ذلك..”

ظل أمجد ينظر لي بنظرات متعجبة، ثم سمع أحد الحراس يصيح به ليبعد ويعود لموقعه، فزفر بحدة وابتعد صامتاً، فيما عدت لإراحة رأسي على ذراعي في انتظار المركبة التي ستقلنا لمباني الإدارة.. ولا أعلم ما الذي سينتظرني هناك.. هل سيكتفون بعزلي مؤقتاً؟ أم أنني سأنال عقاباً ما؟.. لا يهم.. لم يعد ذلك مهماً حقاً.. فتلك المعلومة، على صغرها، ثمينة جداً بحيث تعوّض كل ما جرى وسيجري..

جلسنا نحن الأربعة مقيدي اليدين والقدمين في إحدى غرف المبنى الإداري.. كان الثلاثة قد استيقظوا فجأة بعد وصولنا هنا وإتمام تقييدهم، مما جعلني أشعر أن هذا تم بفعل الإدارة، وإن كنت أجهل الطريقة.. ظللت صامتة وأنا مشيخة بوجهي عنهم وهم يتبادلون عبارات غاضبة محاولين التخلص من قيودهم، ثم سمعت ذو الوشوم يصيح في غضب “تعتقدين أن هذا العقاب سيردعنا عن التعرض لك أنت وذلك الأحمق؟ فور أن أخرج من هنا، احرصني على وداع أصدقائك قبل أن أصل إليك..” صمتُ ولم أرغب بمجادلته، خاصة في الموقع الذي نحن فيه.. ولم يطل حديثه حتى وجدنا أحد الحراس يدلف فيحرر قدمي من قيودها ويجرني معه خارج الغرفة، فتساءلت “إلى أين ستأخذني؟” قال باقتضاب “إلى غرفة العزل..”

صمتُ مرة أخرى وأنا أستسلم له حامدة الله في سري أن الأمر لن يتجاوز هذا.. وإن لم أجروُ على سؤاله كم يوماً سيدوم عزلي، أو عن الآخرين الذين بقوا في الغرفة.. ولم يكن هذا اهتماماً مني بمصيرهم، ولكن لمعرفة إن كان عليّ القلق منهم بعد خروجي.. خرج بي الحارس من المبنى الذي كنا فيه واتجه إلى مبنى آخر يقع في نهاية الساحة المحيطة بمباني

الإدارة.. كان المبنى الآخر مكوناً من طابقين بخلاف الأرضي.. بالكاد أستطيع رؤية نوافذ فيه، لذلك بدا أكثر كآبة من بقية المباني.. فغمرني شيء من القلق وأنا أتساءل عما سيحدث لي هناك.. فور أن دلفنا المبنى الذي كان مغلقاً بقفل الكتروني، حتى سلمني الحارس لأحد العاملين فيه، والذي مرر سوارى على جهاز في يده قام بتسجيل رقمي فيه.. ثم قادني عبر ممرات المبنى الذي يحوي أبواباً حديدية عديدة مصمتة ومغلقة بأقفال إلكترونية.. غمرني شيء من الذعر وأنا أسمع صراخاً في بعض تلك الغرف.. صراخاً حانقاً وشتائم وطرقات عنيفة على الأبواب.. ثم وجدت الحارس يدفع بي عبر أحد الأبواب إلى غرفة صغيرة والتي تعتبر بنصف حجم مسكني.. ولا تحوي إلا فراشاً وضع على الأرض.. وما إن أغلق الباب خلفي حتى عمّ الظلام التام رغم أننا في منتصف النهار عدا عن بصيص ضئيل جداً من فتحة صغيرة في الباب.. تحسست طريقي حتى جلست على الفراش، وأسندت ظهري للحائط خلفي والأصوات المزعجة تصل لسمعي بوضوح.. مما كان يوترني أكثر وأنا أحاول الحصول على بعض الراحة.. لم أجروء على سؤال أحد الحراس عن الوقت الذي سأقضيه هنا، لكن إن طال الأمر فأظنني سأصاب بالجنون حتماً..

“ما الذي تفعليه في منطقة محظورة على الموظفين كهذه؟”
 أجفلتُ والملف في يدي يكاد يسقط أرضاً، ثم قلت بتوتر بدا بوضوح في صوتي “لا شيء.. لقد طلب مني الرئيس إحضار ملف معين.. وأنا هنا لهذا السبب”
 قال الرجل الذي اقترب مني وعيناه تحملان شكاً كبيراً “يمكن للرئيس أن يطلب الملف من موظفي الإرشيف.. لكن ما حاجته لإرسال شخص غير مخول بدخول غرفة الملفات؟”
 ثم أضاف وهو يميل تجاهي “ثم إنك أصبحت تتردد على هذه الغرفة بشكل كبير هذه الأيام..”
 أسرعرتُ أخرج التصريح الذي أملكه بدخول هذه الغرفة التي هي عبارة عن مخزن كبير يحوي الآلاف من الملفات عبر أرفف طويلة وكثيرة.. لكنه قال بسرعة قبل أن يرى التصريح “لست بحاجة لتأمل تصريح مثل هذا.. يمكنك ببعض المعارف الحصول على عشرة مثله”
 قطبت وأنا أرسم الحدة على وجهي “ماذا تعني؟ أتقول إنه مزور؟”
 قال رافعاً حاجباً “افهمي ما تريدينه يا أستاذة.. لكن.. سأترك للأيام أن تكشف ما يجري في ذهنك..”

أنهى قوله لكن لم يبدُ عليه أنه ينوي الرحيل وهو يراقبني، فأغلقت الملف بقوة وأعدته لموقعه، ثم غادرت بخطوات أظهرتها غاضبة وإن كانت تحمل توتراً وقلقاً شديدين.. أهذه تخمينات من عنده أم أن أمري كان أوضح مما أبغي؟ هل سيبلغ رؤساءه بأمري؟ هل سيفضحني ويكشف مسعاي؟.. تبا..

لم أدرك تلك الليلة التي قضيتها في العزل أن بسمه بقيت في مسكني ترتجف خوفاً.. لم أدرك أن أحد الأوغاد الذي كان يتربص بها وقد أدرك بقاءها وحيدة قد تبعها بعد أن أوغل الليل ونام الجميع.. ولم أدرك أنه اقتحم المسكن وحاول إيذاءها مصيباً إياها بذعر شديد.. فصرخت برعب وصرخت حتى كادت حبالها الصوتية تنقطع.. وحاولت أن تدافع عن نفسها دون فائدة تذكر..

ونظراً لقرب مسكنه من مسكني، فقد كان أدهم أول من انتبه للصرخات.. فهبّ من فوره واقتحم مسكني ليجد الرجل فيه بجوار بسمه المذعورة.. لن أخبركم عندها عن غضب أدهم وثورته لأنني لم أرها.. لكن يمكن بالنظر إلى ما تحطم من أثاث مسكني أن أقول إنها كانت عارمة.. ناهيك طبعاً عن الرجل الذي أصيب بعدد من الكسور والجروح وقد لطخت دماؤه أرضيتي وفراشي..

لم يتدخل الحراس في الأمر إذ هم عادة لا يحركون إصبعاً لأي شيء يحدث في المساكن مادام لن يضرّ العمل في المنجم.. لم يتدخلوا إلا عندما استدعاهم أمجد ليوقفوا أدهم قبل أن يقتل الرجل.. حيث لم يستطع هو، ولا غيره ممن تجمع عند المدخل من السجناء، من رده وإيقاف ثورته..

بعد أن نُقل الرجل بعيداً، وانفض الجمع متذمرين للإزعاج الذي قطع راحتهم القصيرة، اقترب أمجد من بسمه التي قبعت في زاوية المسكن والذعر لا يغادرها.. وما إن حاول الاطمئنان عليها حتى تشبثت به وهي تبكي بكاء مرّاً.. بكت وبكت متجنبة النظر إلى أدهم الذي وقف وسط المسكن، والدماء لا تزال دافئة على يديه، حائراً مما عليه فعله.. عليه أن يحمد الله أنهم اعتبروه مدافعاً وليس مهاجماً، وإلا بات ليلته تلك في العزل معي.. بصمت، غادر أدهم المسكن فيما قال أمجد لبسمه “يكفيك بكاء.. الحمد لله أن كل شيء مضى على خير..”

قالت بسمه من بين دموعها المتدفقة “لكنني كنت مذعورة.. كنت دائماً أتوقع أمراً كهذا.. الحقير استغل غياب حمراء دون أن يردعه شيء..”

ربت أمجد على كتفها معلقاً “لم يحدث لك شيء.. وما فعله أدهم سيظل ملاحقاً لك أبداً.. صدقيني لن يجروا أحدهم على النظر إليك بعد الآن خوفاً منه..”

غطت وجهها بيديها قائلة بصوت مرتجف “لكنه أخافني كثيراً.. كان شرساً.. لم يهتم كثيراً بمنظر

الدماء ولا بصوت العظام وهي تتكسر..”
ونظرت إلى أمجد مضيفة بعينين مذعورتين “لقد كان مجنوناً..”
انتبهت في تلك اللحظة إلى أدهم الذي كان يقف وسط المسكن.. كان يحمل غطاءً نظيفاً بدل ذلك
الذي تلطخ بالدم، ويبدو أنه أحضره لها من مسكنها الذي لا تستخدمه عادة.. ورغم الصدمة التي بدت
على وجهه، لكنه لم يتفوه بكلمة وهو يضع ما يحمله على السرير ويغادر بصمت من جديد..
خفضت بسمه وجهها وهي تفرك كفيها بارتجافة، فربت أمجد على كتفها قائلاً “يجب أن تشكركه غداً
على إنقاذك.. أنا سأكون قريباً فلا تخافي من شيء وعودي للنوم”
صمتت دون تعليق، فغادر المسكن بصمت بدوره ليسود المكان هدوء قاتل..
قضت بسمه ليلتها تلك تتقلب دون أن تستطيع النوم أو التغلب على الرجفة في جسدها.. وقرب الفجر،
غادرت المسكن بحثاً عن أمجد كما يبدو، لكن من رآته كان أدهم الذي جلس على الأرض قريباً من
باب مسكني بصمت تام، ويبدو أن قلقه عليها أبقاه قرب المسكن لحمايتها.. أجفلت بسمه قليلاً وهي
تراجع خطوة متسائلة بهمس ضعيف “أين أمجد؟”
قال أدهم بهدوء “عاد إلى مسكنه منذ مدة..”
تراجعت بسمه خطوة أخرى وهي مترددة فيما يجب أن تفعله، فأطرق أدهم قائلاً “إن كان وجودي
يسيء لك فسأغادر على الفور”
تغلبت بسمه على خوفها وهي تقول له بصوت خافت “لا.. ابق قليلاً..”
نظر إليها بحيرة، فراها تجلس على شيء من المبعدة منه وهي تدفن وجهها في ركبتيها متجنباً النظر
إليه، ثم غمغمت بهمس “شكراً لك.. لن أنسى ما فعلته لي البارحة أبداً..”
أطرق أدهم بدوره للحظات قبل أن يقول “أسف لأنني أفزعتك.. لم أتمالك نفسي وأنا أرى ما يفعله
ذاك الحقير.. لم أدرك ما أفعله حقاً إلا عندما استوقفني الحراس وانتزعوه من يدي..”
نظرت له بسمه متغلبة على مشاعرها وقالت “أنت عنيف جداً..”
لم يرفع أدهم رأسه مغمماً “أسف..”
ظلت تنتظر له بنظرات متباينة المشاعر، ثم وقفت وعادت لمسكني بسرعة تاركة أدهم بحيرته من
تصرفاتها العجيبة..
حسناً.. أنا لم أدرك أي شيء من ذلك لأنني كنت في غرفة العزل، لكن أمجد أخبرني بالحادثة كلها،
مثيراً تعجبي مما حدث.. بينما التزمت بسمه إزاءها الصمت التام على غير العادة..
